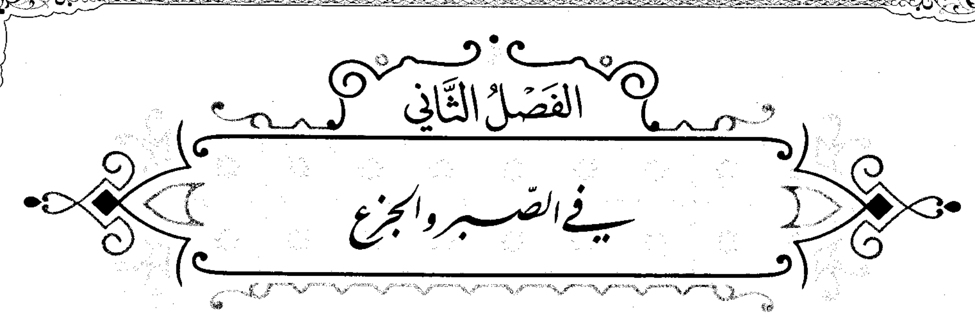


الفصل الثاني

في الصبر والجزع

اعلم : أنَّ من حسن التوفيق ، وأمارات السعادة الصبرَ في المُلِمّات ، والرِّفقَ عند النوازل ، بذلك نزل الكتاب ، وجاءت السنة .

قال الله تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

يعني : ﴿ ٱصْبِرُواْ ﴾ علىٰ ما افترض الله عليكم ، ﴿ وَصَابِرُواْ ﴾ عدوَّكم ، ﴿ وَرَابِطُواْ ﴾ فيه تأويلان ؛ **أحدهما** : ورابطوا على الجهاد ، **والثاني** : رابطوا على انتظار الصلوات[١] .

وروىٰ أبو هريرة رضي الله تعالىٰ عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **ألا أدلُّكُمْ علىٰ ما يُحبِطُ اللهُ به الخطايا ، ويرفعُ به الدَّرجاتِ ؟** » قالوا : بلىٰ ، يا رسولَ اللهِ ، قال : « **إسباغُ الوُضوءِ عندَ المَكارِهِ ، وكَثرةُ الخُطا إلى المَساجِدِ** ، وانتظارُ الصَّلاةِ بعدَ الصَّلاةِ ؛ **فذلكُمُ الرِّباطُ** ، فذلكُمُ الرِّباطُ »[٢] .

فنزل الكتاب بتأكيد الصبر فيما أمر به وندب إليه ، **وجعله من عزائم التَّقوىٰ** فيما افترضه وحثَّ عليه .

رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **الصَّبرُ سَترٌ من الكُرُوبِ** ، وعَونٌ على الخُطُوبِ »[٣] .

وقال علي بن أبي طالب عليه السلام : (**الصَّبرُ مَطيّةٌ لا تكبو** ، والقناعةُ سيفٌ لا ينبو)[٤] .

---

(١) انظر « تفسير الطبري » (٣/ ٤/ ٢٧٦ـ٢٧٧) .
(٢) رواه مسلم (٢٥١) ، والترمذيّ (٥٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .
(٣) أورده في « لباب الآداب » (ص ٢٩٣) ، و« سراج الملوك » (١/ ٣٩٦) .
(٤) أورده في « محاضرات الأدباء » (٤/ ٣٢٧) ، و« سراج الملوك » (١/ ٣٩٦) .

وقال عبد الحميد : لم أسمع أعجبَ من قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (**لو أنَّ الصبر والشكر بعيران . . ما باليَتُ أيَّهما ركبتُ**)[1] .

وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : (**أفضلُ العُدّة : الصَّبرُ على الشِّدّة**)[2] .

وقال بعض البلغاء : (**من خير خِلالك : الصَّبرُ على اختلالك**) .

وقيل في منثور الحكم : (**مَن أحبَّ البقاءَ . . فليُعِدَّ للمصائب قلباً صَبوراً**)[3] .

وقال بعض الحكماء : (**بالصبر علىٰ مواقع الكُره تُدرَك الحظوظُ**)[4] .

وقال بعض الشعراء وهو عَبيد بن الأبرص[5] : [من الخفيف]

صَبِّرِ النَّفسَ عندَ كلِّ مُلِمٍّ ... إنَّ في الصَّبرِ حِيلةَ المُحتالِ
لا تَضيقَنَّ في الأمورِ فقد تُكـ ... ـشَفُ غَمّاؤُها بغيرِ احتيالِ
ربَّما تجزَعُ النُّفوسُ منَ الأمْـ ... ـرِ لهُ فَرْجةٌ كحَلِّ العِقالِ

وقال ابن المقفَّع في كتاب « اليتيمة » : (**الصَّبرُ صبرانِ ؛ فاللئامُ أصبرُ أجساماً ، والكرامُ أصبرُ نفوساً ، وليس الصَّبرُ الممدوحُ صاحبُه أن يكون الرجلُ قويَّ الجسد على الكدِّ والعمل ؛ لأنَّ هـٰذا من صفات الحمير ، ولـٰكن أن يكونَ للنفس غَلُوباً ، وللأمور محتملاً ، ولجأشه عند الحِفاظ مرتبطاً**)[6] .

---

(١) أورده في « البيان والتبيين » (٣/١٢٦) عن أبي عبد الحميد ، وقول سيدنا عمر رضي الله عنه رواه ابن أبي الدنيا في « الصبر » (٧) ، و« المجالسة وجواهر العلم » (١٥٥٨) .
(٢) أورده في « سراج الملوك » (١/٣٩٦) ، و« المحاسن والمساوىء » (ص ٣٠٥) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الاعتبار » (٢١) ، و« تاريخ دمشق » (١٩/٢٠٩) من قول عبد الرحمـٰن بن أبي بكرة رضي الله عنهما .
(٤) أورده في « لباب الآداب » (ص ٢٩٤) ، و« سراج الملوك » (١/٣٩٦) .
(٥) الأبيات في « ديوانه » (ص ٣٣٠) .
(٦) انظر « الأدب الكبير » (ص ٢٦٨) ضمن « آثار ابن المقفع » ، والحِفاظ : الغضب .

واعلم : أن الصبر علىٰ ستة أقسام ، وهو في كلِّ قسمٍ منها محمودٌ .

فأوّل أقسامه وأَولاه : الصبر على امتثال ما أمر الله تعالىٰ به ، والانتهاء عمَّا نهى الله تعالىٰ عنه ؛ لأنَّ به تخلُص الطاعةُ ، وبخُلوص الطاعة يصحُّ الدِّين ، وتؤدَّى الفروض ، ويُستحَقُّ الثواب ؛ كما قال تعالىٰ في مُحكَم الكتاب : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

ولذلك قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « الصَّبرُ مِنَ الإيمانِ بمَنزِلةِ الرأسِ منَ الجَسَدِ »[١] .

وليس لمَن قلَّ صبرُه علىٰ طاعة الله تعالىٰ حظٌّ من برٍّ ، ولا نصيبٌ من صلاح ، ومَن لم يرَ لنفسه صبراً يكسبها ثواباً ، ويدفع عنها عقاباً . . كان مع سوء الاختيار بعيداً من الرَّشاد ، حَقيقاً بالضَّلال .

وقد قال الحسن البصريُّ : (يا مَن يطلب من الدنيا ما لا يلحقُه ؛ أترجو أن تلحقَ من الآخرة ما لا تطلبُه ؟)[٢] .

وقال أبو العتاهية[٣] : [من الطويل]

أراكَ امـرأً تـرجُـو مـنَ اللهِ عَفْـوَهُ ... وأنـتَ علـىٰ مـا لا يُحِـبُّ مُقِيـمُ
تـدُلُّ علـى التَّقـوىٰ وأنـتَ مُقصِّـرٌ ... فيا مَن يُداوي النّاسَ وَهْوَ سَقِيمُ

وهٰذا النوع من الصبر إنَّما يكون لفَرط الجزع ، وشدّة الخوف ؛ فإنَّ مَن خاف الله تعالىٰ . . صبر علىٰ طاعته ، ومَن جزع من عقابه . . وقف عند أوامره .

والقسم الثاني : الصبر علىٰ ما تقضَّتْ أوقاته به من رَزيّةٍ قد أجهده الحزنُ عليها ، أو حادثةٍ قد استكدَّه الكَمَدُ والهمُّ بها[٤] ؛ فإنَّ الصبر عليها يُعقِبُه الراحةَ

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣١٠٧٩) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٤٠) عن سيدنا علي رضي الله عنه موقوفاً .

(٢) أورده في « الكشكول » (٢/ ١٥٣) .

(٣) البيتان في « ديوانه » (ص ٣٤٧ـ٣٤٨) .

(٤) الرزية : المصيبة ، واستكده : أتعبه وأثقل كاهله .

منها ، ويكسبه المَثوبةَ بها ؛ **فإنْ صبر طائعاً** ، وإلاّ . . احتمل هَمّاً لازماً ، وصبر كارهاً آثماً .

ورُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يقول الله تعالىٰ : **مَن لم يَرْضَ بقَضائي ، ولم يصبِرْ علىٰ بلائي . . فليَختَرْ ربّاً سِوايَ** »[1] .

وقال علي بن أبي طالب عليه السلام للأشعث بن قيس : (**إنَّك إنْ صبرتَ** . . جرىٰ عليك القلمُ وأنت مأجورٌ ، **وإنْ جزعتَ** . . جرىٰ عليك القلمُ وأنت مأزورٌ)[2] .

فذكر ذلك أبو تمام في شعرِه ، فقال[3] : [من الطويل]

وقال عليٌّ في التَّعازِي لأشعَثٍ وخافَ عليهِ بعضَ تلكَ المآثِمِ
أتصبِرُ للبَلْوىٰ عَزاءً وحِسْبةً فتُؤجَرَ أو تسلُو سُلُوَّ البَهائِمِ

وقال شَبيب بن شيبةَ للمهديّ : (**إنَّ أحقَّ ما صُبِر عليه . . ما لم تجدْ سبيلاً** إلىٰ دفعه) ، وأنشد : [من الكامل]

وإذا تُصِبْكَ مُصيبةٌ فاصبِرْ لَها عَظُمَتْ مُصيبةُ مُبتلىً لا يصبِرُ[4]

وقال آخر[5] : [من الطويل]

تصبَّرتُ مَغلوباً وإني لَمُوجَعٌ كَما صَبَرَ الظَّمْآنُ في البلدِ القَفْرِ
وليسَ اصطباري عنكَ صبرَ استطاعةٍ ولٰكنه صبرٌ أمرُّ من الصبْرِ

والقسم الثالث : الصبر علىٰ ما فات إدراكُه من رغبةٍ مرجوّة ، وأعوز نيلُه من مسرّةٍ مأمولة ؛ **فإنَّ الصبر عنها يُعقِبُ السَّلْوةَ منها ، والأسفَ بعد اليأس خُرْقٌ** .

---

(١) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (٢٢/ ٣٢٠) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢١/ ٦٠) ، **وفي الحديث** : الحث على الرضا بالقضاء ، والصبر على البلاء .

(٢) أورده في « التذكرة الحمدونية » (٤/ ١٩٥) ، و« شرح نهج البلاغة » (١٩/ ١٩٢) ؛ وفيه وفي (ب) : (جرىٰ عليك القدر) في الموضعين .

(٣) البيتان في « ديوانه » (٣/ ٢٥٩) .

(٤) أورده في «سراج الملوك» (١/ ٤٠٠)، وروى البيتَ في «تاريخ دمشق» (٣٦/ ١٥) لسليمان بن عبد الملك.

(٥) البيت الأول في « ديوان أبي حكيمة » (ص ١١٩) ، وفي « زهر الآداب » (٢/ ٦٥٨) .

رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **مَن أُعطِيَ فشَكَرَ ، ومُنِعَ فصَبَرَ ، وظُلِمَ فغَفَرَ ، وظَلَمَ فاستغفرَ . . أولئكَ لهُمُ الأمنُ وهم مُهتَدُونَ** »[1] .

وقال بعض الحكماء : (**اجعَلْ ما طلبتَه من الدنيا فلم تنَلْه** مثلَ ما لم يخطُرْ ببالك ولم تنَلْه)[2] .

وقال بعض الشعراء[3] : [من الوافر]

إذا ملَكَ القَضاءُ عليكَ أمراً فليسَ يَحُلُّهُ غيرُ القَضاءِ
فما لَكَ والمُقامَ بدارِ ذُلٍّ ودارُ العِزِّ واسعةُ الفَضاءِ

وقال بعض الحكماء : (إن كنتَ تجزع علىٰ ما فات من يدك . . **فاجزَعْ علىٰ ما لم يصِلْ إليك**)[4] .

فأخذه بعض الشعراء فقال[5] : [من السريع]

لا تُطِلِ الحُزْنَ علىٰ فائتٍ فقلَّما يُجدِي عليكَ الحَزَنْ
سِيّانِ محزونٌ علىٰ فائتٍ ومُضمِرٌ حُزْناً لِما لم يَكُنْ

والقسم الرابع : الصبر فيما يخشىٰ حدوثه من رهبةٍ يخافها ، أو يحذر حلولَه من نكبةٍ يخشاها ، فلا يتعجَّلْ همَّ ما لم يأتِ ؛ **فإنَّ أكثرَ الهموم كاذبةٌ** ، والأغلبَ من الخوف مدفوعٌ .

---

(١) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (٧/١٣٨) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٤١١٧) عن سيدنا سَخْبَرَةَ رضي الله عنه .

(٢) رواه في « طبقات الصوفية » (ص ٨٠) من قول أبي سليمان الدارانيّ رحمه الله تعالىٰ ؛ وفي (ب ، ج) : (ببالك فلم تقُلْه) .

(٣) أورد البيتين في « ديوان المعاني » (٢/١٩٣) ، و« التذكرة الحمدونية » (١/٧٩) منسوباً لسيدنا علي رضي الله عنه ، وهما في « ديوانه » (ص ٣٥) برواية وقافية أخرىٰ .

(٤) أورده في « التذكرة الحمدونية » (٣/٣٣٠) ، و« شرح ديوان البلاغة » (١/٣٢٤) من وصية سيدنا علي لابنه محمد رضي الله عنهما .

(٥) البيتان لمحمود الورّاق في « ديوانه » (ص ١٨٣) .

وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **بالصَّبرِ يُتوَقَّعُ الفرَجُ ، ومَن يُدمِنْ قَرْعَ الأبوابِ . . يَلِجْ** »[١] .

وقال الحسن البصري : (لا تحمِلَنَّ علىٰ يومِكَ همَّ غدِكَ ، فحسبُ كلِّ يومٍ همُّه)[٢] .

وأنشد الجاحظ لحارثة بن بدر[٣] : [من الطويل]

إذا الهمُّ أمسىٰ وَهْوَ داءٌ فأَمضِهِ ... ولستَ بمُمضِيهِ وأنتَ تُعادِلُهْ

ولا تُنزِلَنْ أمرَ الشَّديدةِ بامرِئٍ ... إذا همَّ أمراً عوَّقَتْهُ عَواذِلُهْ

وقلْ للفؤادِ إنْ نَزا بكَ نَزْوةً ... منَ الرَّوعِ أَفرِخْ أكثرُ الهَمِّ باطِلُهْ

والقسم الخامس : الصبر فيما يتوقَّعه من رغبةٍ يرجوها ، وينتظره من نعمةٍ يأمُلها ؛ فإنَّه إن أدهشه التوقُّع لها ، وأذهله التطلُّع إليها . . انسدَّت عليه سُبُلُ المطالب ، واستفزَّه تسويلُ المطامع ؛ فكان أبعدَ لرجائه ، وأعظمَ لبلائه .

وإذا كان مع الرَّغبة وَقوراً ، وعند الطلب صَبوراً . . انجلَت عنه عَمايةُ الدَّهَش ، وانجابت عنه حَيرة الوَلَه ، فأبصر رشدَه ، وعرف قصدَه .

وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **الصَّبرُ ضِياءٌ** »[٤] يعني ـ والله أعلم ـ : أنه يكشف ظُلَمَ الحَيرة ، ويوضح حقائقَ الأمور .

وقال أكثم بن صيفيّ : (مَن صبرَ . . ظَفِرَ)[٥] .

---

(١) الشطر الأول من الحديث أورده في « المستطرف » (٢/ ٣٣٤) ، والثاني رواه في « شعب الإيمان » (٩٥٣٠) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٩٧٨٥) عن سيدنا أبي الدرداء رضي الله عنه .

(٢) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٣٤) ، ورواه في « تاريخ دمشق » (٦٨/ ٦٠) من قول السيد المسيح عليه السلام .

(٣) الأبيات في « البيان والتبيين » (٣/ ٢١٨) ، وتعادله : تحار بين فعله وتركه ، وأفرخ الروع : ذهب الفزع .

(٤) رواه مسلم (٢٢٣) ، والترمذي (٣٥١٧) عن سيدنا أبي مالك الأشعري رضي الله عنه .

(٥) رواه القالي في « الأمالي » (٢/ ١٧٢) ، وأورده في « سراج الملوك » (١/ ٣٩٥) .

وقال ابن المقفَّع : (كان في قصر أردشير مكتوبٌ : **الصبرُ مفتاحُ الدَّرَك**)[1] .

وقال بعض الحكماء : (**بحسن التأنِّي تسهُلُ المطالبُ**)[2] .

وقال بعض البلغاء : (**مَن صبرَ .. نال المُنىٰ ، ومَن شكر .. حصَّنَ النُّعْمىٰ**) .

وقال محمد بن بشير[3] : [من البسيط]

إنَّ الأمورَ إذا انسدَّتْ مطالبُها فالصَّبرُ يفتقُ منها كلَّ ما ارتَتَجا
لا تيأسَنَّ وإنْ طالَتْ مُطالبةٌ إذا استعَنْتَ بصبرٍ أنْ ترىٰ فَرَجا
أخلِقْ بذي الصَّبرِ أنْ يحظىٰ بحاجتِهِ ومُدمِنِ القَرْعِ للأبوابِ أنْ يَلِجا

والقسم السادس : الصبر علىٰ ما نزل من مكروه ، أو حلَّ من أمرٍ مَخُوف ، وبالصبر في هـٰذا تنفتح وجوه الآراء ، وتُستدفَع مكايدُ الأعداء ؛ فإنَّ مَن قلَّ صبرُه .. عزب رأيُه ، واشتدَّ جزَعُه ، فصار صريعَ همومه ، وفريسةَ غمومه[4] .

وقد قال الله تعالىٰ : ﴿ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾ .

روىٰ ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **إنِ استطعتَ أن تُعامِلَ اللهَ بالرِّضا واليقينِ .. فافعَلْ ، فإنْ لم تستطِعْ .. فاصبِرْ ؛ فإنَّ في الصَّبرِ علىٰ ما تكرَهُ خيراً كثيراً ، واعلَمْ أنَّ النَّصرَ معَ الصَّبرِ ، والفَرَجَ معَ الكَرْبِ ، واليُسْرَ معَ العُسْرِ** »[5] .

---

(١) أورده في « سراج الملوك » (١/ ٣٩٥) .
(٢) أورده في « ترتيب المدارك » (١/ ٥٠٠) من قول عيسى بن مسكين رحمه الله تعالىٰ ، و« سراج الملوك » (٢/ ٧٦٤) .
(٣) أورد الأبيات في « شعراء أمويون » (٣/ ٢٠٠) .
(٤) عزب رأيه : غاب وضلَّ ، وفريسة غمومه : مقتول غمومه ومغلوبها .
(٥) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣/ ٥٤١) ؛ وفي غير (أ) : (أن تعمل لله بالرضا) .

وقال علي بن أبي طالب عليه السلام : (**الصبرُ** : مناضلُ الحِدثانِ ، **والجَزَعُ** : من أعوانِ الزَّمانِ)[١] .

وقال بعض الحكماء : (**بمفتاح عزيمة الصبر** تُعالَج مغاليقُ الأمور)[٢] .

وقال بعض البلغاء : (**عند انسداد الفُرَج** تبدو مَطالعُ الفَرَج)[٣] .

روى ابن عباس رضي الله عنهما : (أنَّ سليمان بن داوود عليهما الصلاة والسلام **لمّا استكدَّ شياطينَه في البناء** . . شكَوا ذلك إلىٰ إبليس لعنه الله ، فقال : **ألستُمْ تذهبون فُرَّغاً وترجعون مشاغيلَ** ؟ قالوا : بلىٰ ، قال : ففي هـٰذا لكم راحةٌ .

فبلغ ذلك سليمانَ ، **فشغلَهم ذاهبين وراجعين** ، فشكَوا ذلك إلىٰ إبليس لعنه الله ، فقال : **ألستم تستريحون بالليل** ؟ قالوا : بلىٰ ، قال : ففي هـٰذا راحةٌ لكم نصفَ دهرِكم .

فبلغ ذلك سليمانَ عليه السلام ، **فاستعملهم بالليل والنهار** ، فشكَوا ذلك إلىٰ إبليس لعنه الله ، فقال : **الآن جاءكم الفَرَجُ** ، فما لبِثُوا أن أُصِيبَ سليمانُ عليه السلام ميتاً علىٰ عصاه)[٤] .

فإذا كان هـٰذا في نبيٍّ من أنبياء الله عليهم السلام ؛ يعمل بأمره ، ويقف علىٰ حدِّه . . **فكيف بما جرَّتْه الأقدارُ من أيدٍ عادية** ، وساقه القضاء من حوادث نازلة ، **هل تكونُ مع التناهي إلا منقرضةً** ، وعند بلوغ الغاية إلا منحسرةً ؟!

وأنشد بعض الأدباء لعثمان بن عفان رضي الله عنه[٥] : [من الطويل]

خليلَيَّ لا واللهِ ما مِن مُلِمّةٍ تدومُ علىٰ حَيٍّ وإنْ هيَ جَلَّتِ

---

(١) أورده في « ربيع الأبرار » (٣/ ١٨٧) ، و« شرح نهج البلاغة » (١/ ٣٢٠) ، **والمناضلة** : المراماة ، **والحِدْثان** : نوائب الدهر ومصائبه .

(٢) أورده في « جمهرة الأمثال » (١/ ٢٤٤) ، و« البصائر والذخائر » (٤/ ١٥٣) .

(٣) أورده في « نزهة المجالس » (١/ ٨٤) .

(٤) أورده في « نهاية الأرب » (١٤/ ١٣٧) ، و« نزهة المجالس » (١/ ٨٤) ، **واستكدَّ شياطينه** : أتعبهم في بناء بيت المقدس .

(٥) أورد الأبيات سوى الرابع في « الفرج بعد الشدّة » (٥/ ٦)، والثالث والرابع في « الكشكول » (٢/ ٧١).

فإنْ نزلَتْ يوماً فلا تخضَعَنْ لها ... ولا تُكثِرِ الشَّكوىٰ إذا النَّعلُ زَلَّتِ
فكَمْ من كريمٍ قد بُلِي بنوائبٍ ... فصابرَها حتّىٰ مضَتْ واضمَحَلَّتِ
وكَمْ غَمْرةٍ هاجَتْ بأمواجِ غَمْرةٍ ... تلقَّيتُها بالصَّبرِ حتّىٰ تَجَلَّتِ
وكانتْ عَلى الأيّامِ نفسي عزيزةً ... فلمّا رأَتْ صبري على الذُّلِّ ذَلَّتِ
فقلتُ لها يا نفسُ مُوتي كريمةً ... فقدْ كانتِ الدّنيا لنا ثُمّ وَلّتِ

***

ولتسهيل المصائب ، وتخفيف الشدائد أسبابٌ ، إذا قارنت حزماً ، وصادفت عزماً . . هان وقعُها ، وقلَّ تأثيرُها وضررُها .

فمنها : إشعارُ النفس بما تعلمه من حلول الفناء ، وتقضِّي المَسارِّ ، وأنَّ لها آجالاً منصرمةً ، ومُدَداً منقضيةً ؛ **إذ ليس للدنيا حالٌ تدوم** ، ولا لمخلوقٍ فيها بقاءٌ .

روى ابن مسعود رضي الله عنه ، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **إنَّما مَثَلي ومَثَلُ الدنيا** كمَثَلِ راكبٍ ؛ مالَ إلىٰ ظِلِّ شجرةٍ في يومٍ صائفٍ ، ثمَّ راحَ وتَرَكَها »[١] .

وسُئل علي بن أبي طالب عليه السلام عن الدنيا ، فقال : (**تغُرُّ وتضُرُّ وتمُرُّ**)[٢] .

وسُئل بعض الحكماء عن الدنيا ، فقال : (**إذا أقبلَتْ . . أدبرَتْ**) .

وقال عمرو بن عبيد : (**الدنيا أمَدٌ ، والآخرة أبَدٌ**)[٣] .

وقال أنوشروان : (**إنْ أحببتَ ألاّ تغتمَّ . . فلا تقتنِ شيئاً**)[٤] .

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣١٠) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٤٤٤) .
(٢) أورده في « محاضرات الأدباء » (٤/ ٦١) ، و« شرح نهج البلاغة » (٢٠/ ٥١) ، **وتغر** : تخدع وتطمع بالباطل .
(٣) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٣/ ٢٧٣) ، وابن أبي الدنيا في « الزهد » (٢٣٧) من قول عبيد بن عمير الليثيّ .
(٤) في (هـ) : (فلا تقتنِ ما به تهتم) .

فأخذه بعض الشعراء فقال(١) : [من الطويل]

أَلم تَرَ أَنَّ الدَّهرَ من سُوءِ فِعلِهِ ... يُكدِّرُ ما أعطىٰ ويسلُبُ ما أَسْدىٰ
فمَـن سـرَّه ألاّ يـرىٰ مـا يسـوءُهُ ... فـلا يتَّخِـذْ شيئـاً يخـافُ لـهُ فَقْـدا

وأنشد بعض الحكماء : [من الكامل]

لحكيمِنـا بُقْـراطَ خيـرُ قضيّـةٍ ... ووصيّـةٍ تنفـي الهُمُـومَ الـرُّكَّـدا
قال الهمومُ تكونُ مِن طمَعِ الوَرىٰ ... فـي لَبْـثِ مـا فـي طبعِـهِ أن ينفَـدا
فإذا اقتنَيتَ مِنَ الزُّجاجةِ قابلاً ... للكسرِ فانكسرَتْ فلا تَكُ مُكمَدا

وأنشدني بعض أهل العلم لسعيد بن سَلْم(٢) : [من مجزوء الرمل]

إنَّمـا الـدُّنيـا هِبـاتٌ ... وعَـوارٍ مُستـرَدَّةْ
شِـدّةٌ بعـدَ رَخـاءٍ ... ورَخـاءٌ بعـدَ شِـدَّةْ

ولمّا قُتِل بُزُرْجُمِهْرَ . . وُجِد في جيب قميصه رقعةٌ فيها مكتوبٌ : (إذا لم يكن جَدٌّ . . ففِيمَ الكَدُّ ؟ وإذا لم يكن للأمر دوامٌ . . ففِيمَ السُّرورُ ؟ وإذا لم يرِدِ اللهُ تعالىٰ دوامَ مُلكٍ . . ففِيمَ الحِيلةُ ؟)(٣) .

وقال ابن الروميّ(٤) : [من الطويل]

رأيـتُ حيـاةَ المـرءِ رَهْنـاً بمـوتِـهِ ... وصحّتَـهُ رَهْنـاً كـذلـكَ بـالسُّقْـمِ
إذا طابَ لي عيشٌ تنغَّصتُ طِيْبَهُ ... بصِدقِ يقيني أنْ سيذهَبُ كالحُلْمِ
ومَن كان في عيشٍ يراعي زوالَهُ ... فذلكَ في بؤسٍ وإنْ كان في نُعْمِ

---

(١) أوردهما في « التذكرة الحمدونية » (٨/ ١٠٥) ، و« المستطرف » (٢/ ٢٨٨) لعبد الله بن طاهر ، وفي « الإعجاز والإيجاز » (ص ٢٤٢) لعبيد الله بن عبد الله بن طاهر .

(٢) أورده في « نهاية الأرب » (٦/ ١١١) ، ونسبه في « الفرج بعد الشدة » (٥/ ١٩) لأبي العتاهية ، وهو في « ديوانه » (ص ٥٢٤) .

(٣) جَد : البخت والحظ والنصيب ؛ أي : إذا لم يكن لك حظ . . فلا تتعب نفسك ، ودوام ملك : دوام حياة .

(٤) الأبيات في « ديوانه » (٥/ ٢١٢٩) .

ومنها : أن يتصوَّر انجلاء الشدائد ، وانكشاف الهموم ، **وأنَّها تتقدَّر بأوقات لا تتصرَّم قبلَها ، ولا تستديم بعدَها** ، ولا تقصُر بجَزَع ، ولا تطول بصبر ، وأنَّ كلَّ يوم يمرُّ بها . . فهو يذهب منها بشَطر ، ويأخذ منها بنصيب ، حتّىٰ تنجليَ وهو عنها غافل .

حُكي : أنَّ الرشيد حبس رجلاً ، ثم سأل عنه بعد زمان ، فقال للموكَّل به : (قل له : **كلُّ يوم يمضي من نعيمك** . . يمضي من بؤسي مثلُه ، **والأمرُ قريبٌ ، والحَكَمُ اللهُ تعالىٰ**)[1] .

فأخذ هـٰذا المعنىٰ بعض الشعراء فقال[2] : [من البسيط]

لـو أنَّ مـا أنتُـمُ فيـهِ يـدُومُ لكُـمْ ... ظنَنْـتُ مـا أنـا فيـه دائمـاً أبَـدا
لـٰكنْ رأيتُ اللَّيالِيْ غيرَ تاركةٍ ... ما ساءَ من حادثٍ أو سرَّ مُطَّرِدا
فقـد سكَنْـتُ إلـىٰ أنِّـي وأنَّكُـمُ ... سنستَجِـدُّ خـلافَ الحـالتَيـنِ غَـدا

وأُنشدت لبعض الشعراء[3] : [من الطويل]

عَـواقِـبُ مكـروهِ الأمـورِ خِيـارُ ... وأيّـامُ شـرٍّ لا تـدومُ قِصـارُ
وليـسَ بباقٍ بُـؤسُهـا ونَعيمُهـا ... إذا كَـرَّ ليـلٌ ثـمَّ كـرَّ نَهـارُ

وأنشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين حضرته الوفاة[4] : [من الوافر]

أَلَـمْ تَـرَ أنَّ رَبَّـكَ ليسَ تُحصـىٰ ... أيـادِيـهِ الحَـدِيثـةُ والقَـدِيمَـةْ
تسَـلَّ عـنِ الهُمُـومِ فليـسَ شـيءٌ ... يُقيـمُ ولا هُمـومُـكَ بـالمُقِيمَـةْ
لعـلَّ اللهَ ينظُـرُ بعـدَ هـٰذا ... إليـكَ بنظـرةٍ منـهُ رَحِيمَـةْ

---

(١) أورده في « عيون الأخبار » (٢/ ٣٧٥) ، و« العقد الفريد » (٢/ ١٦١) .

(٢) أورد الأبيات في « الإيضاح في علوم البلاغة » (ص ٤٠٧) ، و« التذكرة الحمدونية » (٨/ ٢٧) ، و« ذيل تاريخ بغداد » (١٩/ ٧٣) .

(٣) روى البيتين في « الفرج بعد الشدة » (١/ ٢٩٤) ، و« الوافي بالوفيات » (٧/ ٣٦٨) لابن ثوابة الكاتب .

(٤) أورد الأبيات ابن أبي الدنيا في « الفرج بعد الشدة » (٩٨ ـ نسخة المنتدى الإسلامي) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٩٥٤٩) ، والأيادي : النِّعم ؛ فلا النعم دائمة ، ولا الهموم والأحزان دائمة .

ومنها : أن يعلم أنَّ فيما وُقِي من الرَّزايا ، وكُفِي من الحوادث . . ما هو أعظمُ من رَزيّته ، وأشدُّ من حادثته ؛ ليعلم أنه ممنوحٌ بحسن الدفاع .

ولذلك قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « **إنَّ لله تعالىٰ في أثناءِ كلِّ مِحْنةٍ مِنْحةً** » .

وقيل للشعبي في نائبةٍ : (**كيف أصبحتَ** ؟ قال : **بين نعمتين** : خيرٍ منشورٍ ، وشرٍّ مستورٍ) .

وقال بعض الشعراء(١) : [من الكامل]

لا تَكـرَهِ المكـرُوهَ عنـدَ حُلُـولِـهِ ... إنَّ العَـواقـبَ لـم تَـزَلْ مُتبـاينَـةْ
كَـمْ نِعْمـةٍ لا تستقِـلُّ بشُكْـرِهـا ... للهِ فـي طَـيِّ المَكـارِهِ كـامِنَـةْ

ومنها : أن يتأسّىٰ بذوي الغِيَر ، ويتسلّىٰ بأُولي العِبَر ، ويعلم أنَّهم الأكثرون عدداً ، والأسرعون مدَداً ، فيستنجد من سَلْوة الأسىٰ وحسن العزاء ما يخفِّف شَجْوَه ، ويُقِلُّ هَلَعَه .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (**الصَقوا بذَوي الغِيَرِ . . تتَّسِعْ قلوبُكم**) .

وعلىٰ مثل ذلك كانت مراثي الشعراء ، حتّىٰ قال البحتريُّ(٢) : [من الطويل]

فلا عَجَبٌ للأُسْدِ إنْ ظفِرَتْ بها ... كلابُ الأعادي من فَصيحٍ وأَعجَمِ
فحَرْبةُ وَحْشيٍّ سقَتْ حمزةَ الرَّدىٰ ... وموتُ عليٍّ من حسامِ ابنِ مُلجَمِ

وقال أبو فراس(٣) : [من الكامل]

المَـرءُ بيـنَ مصـائـبٍ مـا تنقضـي ... حتّـىٰ يُـوارَىٰ شخصُـهُ فـي رَمْسِـهِ
فمُـؤجَّـلٌ يَلقـى الـرَّدىٰ فـي أهلِـهِ ... ومُعجَّـلٌ يَلقـى الـرَّدىٰ فـي نَفسِـهِ

---

(١) البيتان في « ديوان سيدنا عليّ » رضي الله عنه (ص ٢٥٤) .
(٢) البيتان في « ديوانه » (٣/١٩٤٨) .
(٣) البيتان في « ديوانه » (ص ١٤٢) .

ومنها : أن يعلم أنَّ النِّعَم زائرةٌ ، وأنَّها لا محالةَ زائلةٌ ، وأنَّ السرور بها إذا أقبلت مَشوبٌ بالحذر من فراقها إذا أدبرت ، **وأنَّها لا تمزُج بإقبالها فرَحاً حتّىٰ تُعقِبَ بفراقها ترَحاً** ، **فعلىٰ قدر السرور يكون الحزن** .

وقد قيل في منثور الحكم : (**المفروحُ به هو المحزونُ عليه**)[1] .

وقيل : (**مَن بلغ غايةَ ما يحبُّ** . . فليتوقَّعْ غايةَ ما يكرَه)[2] .

وقال بعض الحكماء : (**مَن علم أنَّ كلَّ ثابتٍ إلى انقضاء** . . حسُنَ عزاؤه عند نزول البلاء)[3] .

وقيل للحسن البصريِّ رحمه الله : (**كيف ترى الدنيا** ؟ فقال : **شغلني توقُّعُ بلائها عن الفرح برخائها**)[4] .

فأخذه أبو العتاهية فقال[5] : [من السريع]

تـــزيـــدُهُ الأيّـــامُ إنْ أقبلَـــتْ ... شِـــدّةَ خَـــوفٍ لتَصـــاريفِهـــا
كـــأنَّهـــا فـــي حـــالِ إسعـــافِهـــا ... تُسمِعُـــهُ وَقعَـــةَ تخـــويفِهـــا

ومنها : أن يعلم أنَّ سروره مقرون بمَساءة غيره ، وكذلك حزنُه مقرون بسرور غيره ؛ إذ كانت الدنيا تنتقل من صاحبٍ إلىٰ صاحب ، وتصل صاحباً بفراق صاحب ، فتكون سروراً لمَن وصلته ، وحزناً لمَن فارقته .

ولذلك قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « **ما قُرِعَت عصاً علىٰ عصاً إلا فرح لها قومٌ** ، وحزن آخرون »[6] .

---

(١) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٣) ، و« الكشكول » (١/ ٨٤) .
(٢) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٣) ، و« محاضرات الأدباء » (٤/ ٥٦) .
(٣) أورده في « سراج الملوك » (١/ ٤٠٠) .
(٤) أورده في « الكشكول » (٢/ ٦٦) .
(٥) البيتان في « ديوانه » (ص ١٦٥ ـ دار صادر) .
(٦) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٢٩٥) ، وأبو عبيد في « الأمثال » (ص ٢٥٨) .

وقال البحتريُّ[1] : [من الطويل]

متىٰ أَرَتِ الدُّنيا نَباهةَ خاملٍ ... فلا ترتقِبْ إلا خُمُولَ نَبيهِ

وأوضحه المتنبي فقال[2] : [من الطويل]

بذا قَضَتِ الأيّامُ ما بينَ أهلِها ... مَصائبُ قومٍ عندَ قومٍ فَوائدُ

وأنشد بعض أهل الأدب[3] : [من الطويل]

ألا إنَّما الدُّنيا غَضارةُ أَيْكةٍ ... إذا اخضَرَّ منها جانبٌ جفَّ جانبُ

فلا تفرَحَنْ منها لشيءٍ تفيدُهُ ... سيذهبُ يوماً مثلَما أنتَ ذاهبُ

وما هٰذه الأيّامُ إلا فجائعٌ ... وما العيشُ واللَّذّاتُ إلا مصائبُ

فلا تكتحِلْ عيناكَ منها بعَبْرةٍ ... علىٰ ذاهبٍ فيها فإنَّكَ ذاهبُ

ومنها : أن يعلم أنَّ طوارقَ الإنسان من دلائل فضله ، ومِحَنَه من شواهد نُبله ؛ ولذلك إحدىٰ علّتين :

ـ إمّا لأنَّ الكمال مُعوِز ، والنقص لازم ، فإذا توفَّر الفضلُ عليه . . صار النقص فيما سواه .

وقد قيل : (مَن زِيدَ في عقله . . نُقِص من رزقه)[4] .

ورُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما انتقصَتْ جارحةٌ مِن إنسانٍ إلا كانَتْ ذَكاءً في عَقْلِهِ » .

وقال أبو العتاهية[5] : [من البسيط]

ما جاوزَ المَرءُ من أطرافِهِ طَرَفاً ... إلا تخَوَّنَهُ النُّقصانُ في طَرَفِ

---

(1) البيت في « ديوانه » (٤/٢٣٩٩) .

(2) البيت في « ديوانه » (١/٢٧٦) .

(3) الأبيات لابن عبد ربه في « ديوانه » (ص ٤٩) ، والغضارة : النعمة والسعة والخِصب والوفرة في المعيشة ، والأيكة : هو الشجر الملتف الكثير ، وفجائع ـ جمع فجيعة ـ : وهي الرزيئة والمصيبة .

(4) رواه في « حلية الأولياء » (٧/٢٧١) من قول سفيان بن عيينة رحمه الله تعالىٰ .

(5) البيت في « ديوانه » (ص ٢٣٩) .

وأنشد بعض الأدباء لإبراهيم بن هلال الكاتب[1] : [من الطويل]

إذا جمعَتْ بينَ امرَأَينِ صِناعةٌ   فأحبَبْتَ أن تدرِيْ الذي هوَ أحذَقُ
فلا تتفقَّدْ منهما غيرَ ما جرَتْ   بهِ لهما الأرزاقُ حينَ تُفرَّقُ
فحيثُ يكونُ النَّقصُ فالرِّزقُ واسعٌ   وحيثُ يكونُ الفضلُ فالرِّزقُ ضَيِّقُ

ـ وإمّا لأنَّ ذا الفضل محسود ، وبالأذىٰ مقصود ؛ فهو لا يسلم من تِرَة مُعادٍ ، واشتطاط مُناوٍ[2] .

وقد قال الصَّنوبريُّ[3] : [من الكامل]

مِحَنُ الفَتىٰ يُخبِرْنَ عن فَضلِ الفَتىٰ   كالنّارِ مُخبِرةٌ بفَضلِ العَنبَرِ

وقلَّما تكون محنةُ فاضلٍ إلا من جهة ناقص ، وبلوىٰ عالم إلا علىٰ يد جاهل ؛ لاستحكام العداوة بينهما بالمُباينة ، وحدوث الانتقام لأجل التقدُّم .

وقد قال الشاعر[4] : [من الطويل]

فلا غَرْوَ أنْ يُمنىٰ أديبٌ بجاهلٍ   فمِن ذَنَبِ التِّنِّينِ تنكسِفُ الشَّمسُ

* * *

ومنها : ما يعتاضُه من الارتياض بنوائب عصره ، ويستفيدُه من الحُنْكة بلأواء دهره ، فيصلب عودُه ، ويستقيم عمودُه[5] ، ويكمل بأدبَي شدّته ورخائه ، ويتَّعظ بحالتَي عفوِه وبلائه .

حُكي عن ثعلب قال : (دخلتُ علىٰ عبيد الله بن سليمان بن وهب وعليه خِلَعُ

---

(١) أورد الأبيات في « يتيمة الدهر » (٢/٣٤٦) ، و« معجم الأدباء » (١/٣١٣) .
(٢) لا يسلم من جور معاديه في حال بره وإحسانه ، فكيف في حال عقوقه وعصيانه ؟!
(٣) البيت في « ديوانه » (ص ٩٩) .
(٤) البيت لأبي الفتح البستيّ في « ديوانه » (ص ٤٣٦) ، لا غَرْو : لا عجب ، وأن يُمنىٰ : أن يُبتلىٰ به ، والتنين : نجم علىٰ شكل الحية في الفلك .
(٥) المراد به : عقله ورأيه ، استعار العود والعمود لهما بملاحظة أن كلاً منهما يعتمد عليه ، وفي المثل : (زاحم بعودٍ أو دع) أي : استعن علىٰ حربك بالمشايخ الكُمَّل الذين جرَّبوا الأمور .

الرِّضا بعد النَّكبة ، فلمّا مثَلتُ بين يديه . . قال لي : يا أبا العباس : [من مخلع البسيط]

نـوائـبُ الـدَّهـرِ أدَّبَتْنـي ... وإنَّمـا يُـوعَـظُ الأديـبُ
قـد ذُقـتُ حُلْـواً وذُقْـتُ مُـرّاً ... كـذاكَ عيـشُ الفَتـىٰ ضُـرُوبُ
لـم يَمـضِ بـؤسٌ ولا نَعيـمٌ ... إلا وَلِـيْ فيهِمـا نَصِيـبُ
كـذاكَ مَـن صـاحَـبَ اللَّيـالِـيْ ... تعـروه فـي مـرِّهـا الخُطُـوبُ

قلت : لمَن هـٰذه الأبياتُ ؟ قال : لي)[١] .

ومنها : أن يخبُرَ أمورَ زمانه ، ويتنبَّه علىٰ صلاح شانه ، فلا يغترَّ برخاء ، ولا يطمعَ في استواء ، ولا يأمُلَ أن تبقى الدنيا علىٰ حالة ، أو تخلوَ من تقلُّب واستحالة ؛ **فإنَّ مَن عرف الدنيا** ، وخبر أحوالَها . . **هان عليه بؤسُها ونعيمُها** .

أنشد بعض الأدباء[٢] : [من الكامل]

إنِّـي رأيـتُ عـواقـبَ الـدُّنيـا ... فتـرَكـتُ مـا أهـوىٰ لمـا أخشـىٰ
فكَّـرتُ فـي الـدُّنيـا وعـالَمِهـا ... فـإذا جميـعُ أمـورِهـا يفنـىٰ
وبلَـوتُ أكثـرَ أهلِهـا فـإذا ... كـلُّ امـرِىءٍ فـي شـأنِـهِ يسعـىٰ
أسنـىٰ منـازِلِهـا وأرفعُهـا ... فـي العـزِّ أقـربُهـا مـنَ المَهـوىٰ
تقفـو مَسـاوِيْهـا مَحـاسِنَهـا ... لا شـيءَ بيـنَ النَّعـي والبُشـرىٰ
ولقـد مـرَرتُ علـى القُبـورِ فمـا ... مَيَّـزتُ بيـنَ العبـدِ والمَـولـىٰ
أتُـراكَ تـدري كـم رأيـتَ مـنَ الـ ... أحيـاءِ ثـمَّ رأيتَهُـمْ مَـوتـىٰ

فإذا ظفر المصابُ بأحد هـٰذه الأسباب . . تخفَّفت عنه أحزانُه ، وتسهَّلت عليه أشجانُه ، فصار وَشِيكَ السَّلْوةِ ، قليلَ الجَزَعِ ، حسنَ العزاءِ .

---

(١) روى الأبيات سوى الأخير في « الأغاني » (٢٧/ ٩٣٠٢) لسليمان بن وهب يذكر نكبته أيام الواثق .
(٢) الأبيات سوى الرابع لأبي العتاهية في « ديوانه » (ص ٩ـ ١٠) ، فتركت ما أهوىٰ : ما أحبه من متاعها ؛ لما أخشىٰ من حسابها وعقابها ، ومن المهوىٰ : أقربها من السقوط .

قال بعض الحكماء : (مَن حاذر . . لم يهلَعْ ، ومَن راقب . . لم يجزَعْ ، ومَن كان متوقِّعاً . . لم يُلفَ متوجِّعاً)(١) .

وقال بعض الشعراء(٢) : [من الرمل]

إنَّمـا الـدَّهـرُ سُهـولٌ وحُـزُونُ ... مـا يكـونُ الأمـرُ سَهْـلاً كلُّـهُ
قلَّمـا هـوَّنـتَ إلا سيهُـونُ ... هَـوِّنِ الأمـرَ تَعِـشْ فـي راحـةٍ
ضـلَّ مَـن يطلُـبُ شيئاً لا يكُـونُ ... تطلُـبُ الـرّاحـةَ فـي دارِ العَنـا

وإن أغفل نفسَه من دواعي السَّلْوة ، ومنعها من أسباب الصبر . . تضاعف عليه من شدّة الأسىٰ وهمِّ الجزع ما لا يُطيق صبراً عليه ، ولا يجدُ سُلُوّاً عنه .

وقال ابن الروميِّ(٣) : [من الكامل]

إنَّ البَـلاءَ يُطـاقُ غيـرَ مُضـاعَـفٍ ... فـإذا تضـاعَـفَ صـارَ غيـرَ مُطـاقِ

فإنْ ساعد جزَعَه بالأسباب الباعثة عليه ، وأيّد هلَعَه بالذرائع الداعية إليه . . فقد سعىٰ في حَتْفه ، وأعان علىٰ تَلَفه .

فمن أسباب ذلك : تذكُّرُ المُصاب ، حتّىٰ لا يتناساه ، وتصوُّرُه ، حتّىٰ لا يعزُبُ عنه ، ولا يجدُ مع التَّذكار سَلْوة ، ولا يخلط مع التصوُّرِ تعزيةً .

وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (لا تستغزِرُوا الدموعَ بالتذكُّر)(٤) .

وقال الشاعر(٥) : [من الطويل]

. . . . ولا يبعَـثُ الأحـزانَ مثـلُ التَّـذكُّـرِ

---

(١) أورده في « سراج الملوك » (١/ ٤١٠) ، وبعضه في « محاضرات الأدباء » (٤/ ٣٢٩) .
(٢) الأبيات لعمرو بن حِلِّزَةَ اليَشكُريِّ كما في « الحماسة البصريّة » (٤/ ١٦٨٤) ، ووردت في « ديوان سيدنا عليٍّ » رضي الله عنه (ص ٢٥٩) ، وفي (ب ، ج) : (دار الفنا) .
(٣) البيت في « ديوانه » (٤/ ١٦٦٢) .
(٤) كذا أورده في « سراج الملوك » (١/ ٤٠٩) ، ورواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٧٣٦/ م) ، و« عيون الأخبار » (٢/ ٢٩٨) بلفظ : (استغزروا العيون بالتذكُّر) .
(٥) البيت لليلى الأخيَليّة في « ديوانها » (ص ٤٦) ؛ وصدره : (سمعْنَ بهَيجا أزهقت فذكَرْنَه . . .) .

ومنها : الأسف وشدّة الحسرة ، فلا يرىٰ من مُصابه خَلَفاً ، ولا يجدُ لمفقوده بَدَلاً ، فيزداد بالأسف وَلَهاً ، وبالحسرة هَلَعاً .

ولذلك قال الله تعالىٰ : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ .

وقال بعض الشعراء[1] : [من البسيط]

إذا ابتُليتَ فثِقْ باللهِ وارْضَ بِهِ ... إنَّ الذي يكشفُ البَلْوىٰ هوَ اللهُ
إذا قَضَى اللهُ فاستسلِمْ لقُدرتِهِ ... ما لامرئٍ حِيلةٌ فيما قَضَى اللهُ
اليأسُ يقطَعُ أحياناً بصاحبِهِ ... لا تيأسَنَّ فإنَّ الصانعَ اللهُ

ومنها : كثرةُ الشكوىٰ ، وبثُّ الجَزَع ؛ فقد قيل في قوله تعالىٰ : (﴿ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴾ : إنَّه الصَّبرُ الذي لا شكوىٰ فيه ، ولا بثَّ)[2] .

وروىٰ أنس بن مالك رضي الله تعالىٰ عنه أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : « ما صَبرَ مَن بَثَّ »[3] .

وحكىٰ كعب الأحبار : أنَّه مكتوبٌ في التوراة : (مَن أصابه مصيبةٌ فشكا إلى الناس . . فإنَّما يشكو ربَّه)[4] .

وحُكي : أنَّ أعرابيّةً دخلت من البادية ، فسمعت صوارخَ في دارٍ ، فقالت : (ما هٰذا ؟ فقيل لها : مات لهم إنسانٌ ، فقالت : ما أراهُم إلا مِن ربِّهم يستغيثون ، وبقضائه يتبرَّمون ، وعن ثوابه يرغبون)[5] .

وقيل في منثور الحكم : (مَن ضاق قلبُه . . اتَّسعَ لسانُه)[6] .

---

(١) روى البيتين الأول والثالث ابن عساكر في « معجم الشيوخ » (٨٣٩) لصالح بن عبد القدّوس ، والأوَّلين في « الفرج بعد الشدة » (٥/ ٢٠) فيما يُروىٰ لأبي العتاهية .

(٢) انظر « تفسير الطبري » (١٤/ ٢٩/ ٨٨) .

(٣) رواه أبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (٢/ ٣) ، وبث ؛ أي : نشر بلاءه .

(٤) رواه الإمام أحمد في « الزهد » (١٩٠٩) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٩٥٧٣) من قول فرقد السبخيّ رحمه الله تعالىٰ .

(٥) أورده في « محاضرات الأدباء » (٤/ ٣٣٠) ، ويتبرمون : يتضجرون .

(٦) أورده في « عيون الأخبار » (١/ ٤٠) ، و« الموشّىٰ » (ص ٤٦) من قول المهلَّب بن أبي صفرة .

وأنشدني بعض أهل العلم[1] : [من مشطور الرجز]

لا تُكثِـرِ الشَّكـوىٰ إلـى الصَّـديـقِ
وارجِـعْ إلـى الخـالـقِ لا المَخلُـوقِ
لا يُخـرَجُ الغـريـقُ بـالغـريـقِ

وقال بعض الشعراء[2] : [من الكامل]

لا تَشـكُ دَهْـرَكَ مـا صَحَحْـتَ بِـهِ ... إنَّ الغِنـىٰ هُـوَ صِحّـةُ الجِسْـمِ
هَبْـكَ الخليفـةَ كنـتَ مُنتفِعـاً ... بغَضـارةِ الـدُّنيـا مـعَ السُّقْـمِ

* * *

ومنها : اليأس من جَبر مُصابه ، ودَرك طِلابه ؛ فيقترن بحزن الحادثة قُنوطُ الإياس ، فلا يبقىٰ معهما صبرٌ ، ولا يتَّسع لهما صدرٌ ؛ ولذلك قيل : (**المصيبةُ بالصبر أعظمُ المصيبتين**)[3] .

وقال ابن الروميِّ[4] : [من مجزوء الرمل]

اصبِـرِي أيَّتُهـا النَّفْـ ... ـسُ فـإنَّ الصَّبـرَ أَحْجـىٰ
ربَّمـا خـابَ رجـاءٌ ... وأتـىٰ مـا ليـس يُـرجـىٰ

وأنشدني بعض أهل الأدب[5] : [من الطويل]

أتحسـبُ أنَّ البـؤسَ للحُـرِّ دائـمٌ ... ولو دامَ شيءٌ عدَّهُ النَّاسُ في العَجَبْ

---

(١) أورد الأبيات في « سراج الملوك » (١/ ٤٠٩) .

(٢) أورد البيتين في « التذكرة الحمدونية » (٤/ ٣٣٧) ، و« معجم الأدباء » (٥/ ٥٠٠) لعمارة بن حمزة الكاتب .

(٣) أورده في « المحاسن والمساوىء » (ص ٣٩٦) ، و« سراج الملوك » (١/ ٤١٠) ، **وهو أعظم المصيبتين** ؛ لأن الصبر عوضٌ عن المفقود ، ولا عوض عن الصبر ؛ فلذا كان أعظم .

(٤) البيتان لأبي تمّام في « ديوانه » (٤/ ٥٠٤) .

(٥) أورد الأبيات في « الفرج بعد الشدة » (٥/ ٨١) لسعد بن محمد الأزديّ ، والبيتين الأخيرين في « معجم الأدباء » (٤/ ٦٣) للحسين بن عبد الرحيم ابن أبي الزلازل ، **وصرف دهره** : نوائبه ومصائبه ، **وأعياه** : أعجزه .

لَقد عرَّفَتْكَ الحادِثاتُ نُفوسَها وقد أدَّبَتْ إنْ كان ينفعُكَ الأَدَبْ
ولو طلَبَ الإنسانُ مِن صَرْفِ دهرِهِ دوامَ الذي يخشىٰ لأعياه ما طَلَبْ

ومنها : أن يُغرىٰ بملاحظة مَن حِيطَت سلامتُه ، **وحُرِست نعمتُه**[1] ؛ حتَّى التحف بالأمن والدَّعَة ، واستمتع بالثروة والسَّعَة ، **ويرىٰ أنه قد خُصَّ من بينهم** بالرَّزيّة بعد أن كان مُساوِياً ، **وأُفرِد بالحادثة** بعد أن كان مُكافِياً ، فلا يستطيع صبراً علىٰ بَلوىٰ ، ولا يلتزم شكراً علىٰ نُعمىٰ ، **ولو قابل بهٰذه النظرة ملاحظةَ مَن شاركه في الرَّزيّة** ، وساواه في الحادثة . . **لتكافأ عنده الأمران** ، فهان عليه الصَّبرُ ، وحان منه الفرج .

أُنشدتُ لامرأةٍ من العرب[2] : [من مجزوء الرمل]

أيُّهـــا الإنســـانُ صَبْـــراً إنَّ بعـــدَ العُســـرِ يُســـرا
كَـــمْ رأَينـــا اليـــومَ حُـــرّاً لـــم يكـــنْ بـــالأمـــسِ حُـــرّا
ملَـــكَ الصَّبـــرَ فـــأضحـــىٰ مـــالكـــاً خيـــراً وشـــرّا
اشـــرَبِ الصَّبـــرَ وإنْ كـــا نَ مـــنَ الصَّبْـــرِ أمَـــرّا

وأنشد بعضُ أهل الأدب[3] : [من الطويل]

يُراعُ الفتىٰ للخَطْبِ تبدو صُدُورُهُ فيأسىٰ وفي عُقْباهُ يأتي سُرُورُهُ
ألـم تَـرَ أنَّ اللَّيـلَ لمّـا تـراكَمَـتْ دُجـاهُ بـدا وجـهُ الصَّبـاحِ ونُـورُهُ
فلا تصحبَنَّ اليأسَ إنْ كنتَ عالماً لبيبـاً فـإنَّ الـدَّهـرَ شَتّـىٰ أمُـورُهُ

---

(١) أن يُغرىٰ : أن يولع ويحرض ، وحيطت سلامته : صِينت وحُفظت .
(٢) الأبيات للخبزارزّيّ في « ديوانه » (القطعة رقم ٢٧٨) ، من الصبر أمرًا : هو بكسر الباء نبات شديد المرارة ، وسكنت باؤه للضرورة .
(٣) أورد الأبيات في « الفرج بعد الشدّة » (ص ٨٠ ـ ٨١) لسعد بن محمد الأزديّ ، وشتىٰ : فعل ماضٍ من التشتيت ؛ وهو التفرق الكثير .

واعلم : أنَّه قلَّ مَن صبر علىٰ حادثةٍ وتماسك في نكبةٍ **إلا كان انكشافُها وَشيكاً** ، وكان الفرَجُ منها قريباً .

أخبرني بعض أهل الأدب : أنَّ أبا أيوبَ الكاتبَ **حُبِس في السجن خمسَ عشرةَ سنةً** ، حتّىٰ ضاقت حيلتُه ، وقلَّ صبرُه ، **فكتب إلىٰ بعض إخوانه يشكو طولَ حبسه** ، وقلّةَ صبره ، فردَّ عليه جواب رقعته : [من الكامل]

صبـراً أبـا أيّـوبَ صَبْـرَ مُبـرَّحِ ... فإذا عجزتَ عن الخُطُوبِ فمَن لَها
إنَّ الـذي عقـدَ الـذي انعقـدَتْ لـه ... عُقَـدُ المَكـارهِ فيـك يملِـكُ حَلَّهـا
صبـراً فـإنَّ الصَّبـرَ يُعقِـبُ راحـةً ... ولعلَّهـا أنْ تنجلِـيْ ولعلَّهـا

فأجابه أبو أيّوبَ : [من الكامل]

صبَّـرْتَنـي ووعظْتَنـي وأنـا لَهـا ... وستنجلـي بـل لا أقـولُ لعلَّهـا
ويَحُلُّها مَن كان صاحبَ عَقْدِها ... كَـرَمـاً بـه إذْ كـان يملِـكُ حَلَّهـا

قال : **فلم يلبَثْ بعد ذلك في السِّجن إلا أياماً يسيرةً** ، ثم أُطلِق مُكرَّماً[1] .

وأنشد ابن دريد عن أبي حاتم[2] : [من الوافر]

إذا اشتملَتْ على اليأسِ القُلُوبُ ... وضـاقَ لمـا بـهِ الصَّـدرُ الـرَّحِيـبُ
وأوطنـتِ المَكـارهُ واطمـأنَّـتْ ... وأرسَـتْ فـي أمَـاكِنِهـا الخُطُـوبُ
ولـم تَـرَ لانكشـافِ الضُّـرِّ وَجْهـاً ... ولا أغنـىٰ بحيلتِـهِ الأرِيـبُ
أتـاكَ علـىٰ قُنـوطٍ منـكَ غَـوثٌ ... يَمُـنُّ بـه اللَّطيـفُ المُستجيـبُ
وكـلُّ الحـادثـاتِ وإنْ تنـاهَـتْ ... فمـوصـولٌ بهـا فَـرَجٌ قـريـبُ

---

(١) رواه في « الفرج بعد الشدة » (١/١٨٦ـ ١٨٧) ، وابن النجار في « ذيل تاريخ بغداد » (١٩/١٨٣ـ ١٨٤) ، **والأخوان** : أبو أيوب سليمان والحسن ابنا وهب ، **وصبر مبرَّح** : اسم مفعول من التبريح ؛ وهو شدة الأذىٰ .

(٢) أورد الأبيات في « وفيات الأعيان » (٦/٣٩٩) لابن السكيت ، ورواها في « تاريخ دمشق » (٤٢/٥٢٣) لسيدنا علي رضي الله عنه ، وهي في « ديوانه » (ص ٤٥) ، **وأوطنت** : اتخذت المكارهُ والمصائب وطناً ، **وأرست** : ثبتت .

ولبعضهم في هـٰذا المعنىٰ : [من الكامل]

وإذا الأمـورُ تعـذَّرَتْ ثـمَّ التَـوَتْ   هَبَـطَ القضـاءُ مـنَ السَّمـاءِ فحَلَّهـا
فـاصبِـرْ لهـا ولعلَّهـا أنْ تنجلِـيْ   وعسى الذي عَقَدَ الأمورَ يَحُلُّها

الفَصلُ الثَّالِثُ

في المشورة

اعلم : أنَّ من الحزم لكل ذي لبٍّ ألاّ يُبرمَ أمراً ، ولا يُمضيَ عزماً إلا بمشورة ذي الرأي الناصح ، ومطالعة ذي العقل الراجح ؛ فإنَّ الله تعالىٰ أمر بالمشورة نبيَّه صلى الله عليه وسلم مع ما تكفَّل به من إرشاده ، ووعده من تأييده ، فقال تعالىٰ : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾[(1)] .

واخْتُلف في معنىٰ أمره بالمشاورة ؛ فقال قتادة : (أمره بمشاورتهم ؛ تألُّفاً لهم ، وتطييباً لأنفسهم) .

وقال الضحاك : (أمره بمشاورتهم ؛ لما علم فيها من الفضل) .

وقال الحسن البصريُّ : (أمره بمشاورتهم ؛ ليَستنَّ به المسلمون ، ويتَّبعَه فيها المؤمنون وإن كان عن مشاورتهم غنيّاً)[(2)] .

رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « المشاورةُ : حِصنٌ منَ النَّدامةِ ، وأمانٌ منَ المَلامةِ »[(3)] .

وقال علي بن أبي طالب عليه السلام : (نعمَ المُؤازرةُ المُشاورةُ ، وبئسَ الاستعدادُ الاستبدادُ)[(4)] .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (الرجالُ ثلاثةٌ : رجلٌ تَرِدُ عليه الأمورُ

---

(١) اختلف في اشتقاق المشورة ؛ فقيل : من (شرت العسل) إذا جنيته ؛ فكأن المستشير يجني الرأي من المشير ، وقيل : من (شرت الدابة) إذا أجريتها مقبلة ومدبرة لتختبرها ، والمكان الذي يعرض فيه الدواب يُسمىٰ مشواراً كأنه بالعرض يُعلم خيره وشره ؛ فكذلك يُعلم بالمشاورة خير الأمور وشرها .

(٢) أورد الأقوال الطبريّ في « تفسيره » (٣/ ٤/ ١٩٢ـ ١٩٣) وجعل الأخير قول سفيان بن عيينة رحمه الله تعالىٰ .

(٣) أورده في « محاضرات الأدباء » (١/ ٥٢) .

(٤) أورده في « نهاية الأرب » (٦/ ٦٩) ؛ وفي هامش (أ) : (وقد ورد مسنداً أيضاً) ، وأورده مرفوعاً في « محاضرات الأدباء » (١/ ٥٢) .

فيُصدِرُها برأيه ، ورجلٌ يُشاوِرُ فيما أشكلَ عليه ، وينزلُ حيثُ يأمره أهلُ الرأي ، ورجلٌ حائرٌ بائرٌ ، لا يأتمرُ رُشداً ، ولا يطيع مُرشِداً)[1] .

وقال عمر بن عبد العزيز : (إن المشورة والمناظرة بابا رحمة ، ومفتاحا بركة ، لا يضلُّ معهما رأيٌ ، ولا يُفقَدُ معهما حزمٌ)[2] .

وقال سيف بن ذي يزن : (مَن أُعجِبَ برأيه .. لم يشاوِرْ ، ومَنِ استبدَّ برأيه .. كان منَ الصواب بعيداً)[3] .

وقال عبد الحميد : (المُشاوِرُ في رأيه ناظرٌ من ورائه) .

وقيل في منثور الحكم : (المشورةُ راحةٌ لك ، وتعبٌ علىٰ غيرك)[4] .

وقال بعض الحكماء : (الاستشارةُ عينُ الهداية ، وقد خاطر مَن استغنىٰ برأيه)[5] .

وقال بعض الأدباء : (ما خاب مَن استخار ، ولا ندم مَن استشار)[6] .

وقال بعض البلغاء : (من حقِّ العاقل : أن يضيف إلىٰ رأيه آراءَ العقلاء ، ويجمعَ إلىٰ عقله عقولَ الحكماء ؛ فالرأي الفذُّ ربَّما زلَّ ، والعقل الفردُ ربَّما ضلَّ)[7] .

وقال بشار بن برد[8] : [من الطويل]

إذا بلغَ الرأيُ المَشُورةَ فاستعِنْ ... برأيِ نَصيحٍ أو مَشُورةِ حازِمِ

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (١٧٤٣٢) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٧١٣١) بنحوه ، وحائر بائر : فاسدٌ رأيه ، وهالك لم يتجه برأيه إلىٰ شيء .

(٢) أورده في « العقد الفريد » (١/١٩٣) من قول المهديّ .

(٣) أورده في « جمهرة الأمثال » (١/١٣٥) ، و« بهجة المجالس » (١/٤٥٧) من قول قتيبة بن مسلم .

(٤) أورده في « التذكرة الحمدونية » (٣/٣٠٦) ، و« التمثيل والمحاضرة » (ص ٤١٨) من قول ابن المعتزّ .

(٥) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤١٧) ، و« المستطرف » (١/٩٤) .

(٦) رواه الشهاب في « مسنده » (٧٧٤) ، والطبرانيّ في « المعجم الأوسط » (٦٦٢٣) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٧) أورده في « لباب الآداب » (ص ٦٠) ، و« الكشكول » (٢/١٥٣) .

(٨) البيتان في « ديوانه » (٤/١٩٣) ، وعليك غضاضة ؛ أي : ذلاً ومنقصة ، والخوافي : إما العيون الذين =

ولا تجعَلِ الشُّورىٰ عليكَ غَضاضةً   فإنَّ الخَوافيْ قوّةٌ للقَوادِمِ

فإذا عزم على المشاورة.. ارتاد لها من أهلها مَن قد استكملت فيه خمس خصال :

إحداهنَّ : عقلٌ كاملٌ مع تجربةٍ سالفة ؛ فإنَّ بكثرة التجارب تصحُّ الرَّوِيّةُ .

وقد روىٰ أبو الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « استرشِدُوا العاقلَ .. ترشُدُوا ، ولا تعصُوهُ فتندَمُوا »[1] .

وقال عبد الله بن الحسن لابنه محمد : (احذَرْ مشورةَ الجاهلِ وإن كان ناصحاً كما تحذر عداوةَ العاقل إذا كان عدوّاً ؛ فإنَّه يوشكُ أن يورِّطَك بمشورته ، فيسبق إليك مكرُ العاقل ، وتوريطُ الجاهل)[2] .

وقيل لرجلٍ من عَبْس : (ما أكثرَ صوابَكم !! قال : نحن ألفُ رجل ، وفينا حازمٌ ، ونحن نطيعُه ، فكأنّا ألفُ حازمٍ)[3] .

وكان يقال : (إياكَ ومشاورةَ رجلين : شابٌّ مُعجَبٍ بنفسه ، قليلِ التجارب في غيره ، أو كبيرٍ قد أخذ الدهرُ من عقله كما أخذ من جسمه)[4] .

وقيل في منثور الحكم : (كلُّ شيءٍ يحتاجُ إلى العقل ، والعقلُ يحتاجُ إلى التجارب)[5] .

= يتقدمون الجيش ؛ ليتجسسوا مكامن الأعداء ، وهم قوة للعسكر القوادم ، وإما الريش الصغير لجناح الطائر هو قوة لمقادمه ؛ فكذلك المشورة قوة للمستشير .

(١) رواه الخطيب البغدادي في « المتفق والمفترق » (١/ ٤٦٦) ، والشهاب في « مسنده » (٧٢٢) .

(٢) أورده في « البيان والتبيين » (١/ ٣٣٢) ، و« لباب الآداب » (ص ١٥) .

(٣) أورده في « عيون الأخبار » (١/ ٣٢) ، ورواه في « شعب الإيمان » (٨٠٣٩) .

(٤) أورده في « عيون الأخبار » (١/ ١٥) ، و« التذكرة الحمدونية » (١/ ٣٠٨) ممّا كتبه أبرويز إلى ابنه شيرويه .

(٥) أورده في « البصائر والذخائر » (٤/ ٩٧) ، و« المجالسة وجواهر العلم » (٢/ ٥٩٩) .

ولذلك قيل : (الأيّامُ تهتكُ لك عن الأستار الكامنة) .

وقال بعض الحكماء : (التجاربُ ليست لها غايةٌ ، والعاقلُ منها في زيادة)[1] .

وقال بعض البلغاء : (مَن استعان بذوي العقول . . فاز بدَرْك المأمول)[2] .

وقال أبو الأسود الدؤلي[3] : [من الطويل]

وما كلُّ ذي لُبٍّ بمُؤتِيكَ نُصْحَهُ ... ولا كـلُّ مـؤتٍ نُصْحَـهُ بلَبيـبِ
ولٰكنْ إذا ما استجمَعا عندَ صاحبٍ ... فحـقّ لـه مـن طـاعـةٍ بنَصيـبِ

والخصلة الثانية : أن يكون ذا دِينٍ وتُقىً ؛ فإنَّ ذلك عمادُ كلِّ صلاح ، وبابُ كلِّ نجاح ، ومَن غلب عليه الدِّين . . فهو مأمونُ السريرة ، موفَّقُ العزيمة .

روىٰ عكرمة ، عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَن أرادَ أمراً فشاوَرَ فيه امرأً مسلماً . . وفَّقه الله لأرشَدِ أمورِهِ »[4] .

والخصلة الثالثة : أن يكون ناصحاً ودوداً ؛ فإنَّ النصح والمودّة يُصدِّقان الفكرةَ ، ويُمحِّضان الرأيَ .

وقد قال بعض الحكماء : (لا تشاوِرْ إلا الحازمَ غير الحَسود ، واللبيبَ غير الحَقود ، وإياك ومشاورةَ النساء ؛ فإنَّ رأيهنَّ إلى الأَفْن ، وعزمَهنَّ إلى الوَهْن)[5] .

---

(١) أورده في « العقد الفريد » (٢/ ٢٤٦) ، و« بهجة المجالس » (٢/ ١٨٧) .
(٢) أورده في « لباب الآداب » (ص ٦٩) .
(٣) البيتان في « ديوانه » (ص ٤٥) .
(٤) رواه الطبراني في « المعجم الأوسط » (٨٣٢٩) .
(٥) أورد بعضه في « نثر الدرّ » (٤/ ٢١١) ، و« المحاسن والمساوىء » (ص ٣٧٠) ، والأَفْن : ضعف الرأي ، والوهن : الضعف .

وقال بعض الأدباء : (مشاورةُ المُشفِق الحازم ظفَرٌ ، ومشاورةُ غيرِ الحازم خطَرٌ)[1] .

وقال بعض الشعراء[2] : [من المنسرح]

صَـفْ ضميـراً لِمَـن تُعـاشِـرُهُ ... واسكُـنْ إلـىٰ نـاصـحٍ تُشـاوِرُهُ
وارضَ مِـنَ المـرءِ فـي مَـودَّتِـهِ ... بمـا يُـؤدِّي إليـكَ ظـاهِـرُهُ
مَن يكشِفِ الناسَ لا يجِدْ أحداً ... تصـحُّ منهُـمْ لـهُ سَـرائـرُهُ
أوشَـكَ ألاّ يـدومَ وَصْـلُ أخٍ ... فـي كـلِّ زَلاّتِـهِ تُنـافِـرُهُ

والخصلة الرابعة : أن يكون سليمَ الفكر من همٍّ قاطع ، وغمٍّ شاغل ؛ فإنَّ مَن عارضت فكرَه شوائبُ الهموم . . لم يسلمْ له رأيٌ ، ولم يستقمْ له خاطرٌ .

وقد قيل في منثور الحكم : (بتَرداد الفكر ينجابُ لك العمىٰ) .

وكان كسرىٰ إذا دهمه أمرٌ . . بعث إلىٰ مَرازِبته فاستشارهم ، فإن قصَّروا في الرأي . . ضرب قَهارِمتَه ، وقال : (أبطأتم بأرزاقهم ، فأخطؤوا في آرائهم)[3] .

وقال صالح بن عبد القدوس[4] : [من البسيط]

ولا مُشيـرَ كـذي نُصْـحٍ ومقـدرةٍ ... في مُشكِلِ الأمرِ فاختَرْ ذاكَ مُنتصَحا

---

(١) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤١٨) ، و« التذكرة الحمدونية » (٣٠٦/٣) من قول ابن المعتزّ .

(٢) أورد الأبيات سوى الأول في « العقد الفريد » (٣١٢/٢) لمحمد بن حازم الباهلي ، وهي في « ديوانه » (ص٦٠ ـ البقاعي) .

(٣) أورده في « بهجة المجالس » (٣٣٨/١) ، و« عيون الأخبار » (٣٢/١) ، والمرازبة ـ جمع مَرْزُبان ـ : وهو المقدَّم على القوم دون الملك ، والقهارمة ـ جمع قَهْرَمان ـ : وهو الخازن والوكيل ، الحافظ لما تحت يده .

(٤) البيت في « ديوانه » (ص ١٣٨) .

والخصلة الخامسة : ألاّ يكون له في الأمر المستشار غرضٌ يتابعه ، ولا هوىً يساعده ؛ فإنَّ الأغراض جاذبةٌ ، والهوىٰ صادٌّ ، والرأي إذا عارضه الهوىٰ ، وجاذبته الأغراضُ . . فسد .

وقد قال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب : [من الطويل]

وقد تُحكِمُ الأيّامُ مَن كان جاهلاً ... ويُردِي الهَوىٰ ذا الرأي وَهْوَ لَبيبُ
ويُحمَدُ في الأمرِ الفتىٰ وَهْوَ مُخطِئٌ ... ويُعذَلُ في الإحسانِ وَهْوَ مُصِيبُ

فإذا استكملت هـٰذه الخصالُ الخمس في رجلٍ . . كان أهلاً للمَشورة ، ومعدِناً للرأي ، **فلا تعدِلْ عن استشارته** ؛ اعتماداً علىٰ ما تتوهَّمه من فضل رأيك ، وثقةً بما تستشعره من صحّة رَوِيّتك ؛ **فإنَّ رأيَ غير ذي الحاجة أسلمُ** ، وهو من الصواب أقربُ ؛ **لخُلوص الفكر** ، **وخُلوّ الخاطر** ، مع عدم الهوىٰ ، وارتفاع الشهوة .

وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **رأسُ العقلِ بعدَ الإيمانِ باللهِ تعالىٰ** : التَّوَدُّدُ إلى الناس ، وما استغنىٰ مستبدٌّ برأيه ، **وما هلكَ أحدٌ عن مَشورةٍ** ، وإذا أراد الله تعالىٰ بعبدٍ هَلَكةً . . كان أوَّلَ ما يُهلِكُه رأيُه »(١) .

وقال علي بن أبي طالب عليه السلام : (**الاستشارةُ عينُ الهداية** ، وقد خاطرَ مَن استغنىٰ برأيه)(٢) .

وقال لقمان لابنه : (**شاوِرْ مَن جرَّبَ الأمور** ؛ **فإنَّه يعطيك من رأيه ما قام عليه بالغَلاء** ، وأنت تأخذه بالمجّان)(٣) .

وقال بعض الحكماء : (**نصفُ رأيك مع أخيك** ، فشاوِرْه ؛ ليكملَ لك الرأيُ)(٤) .

---

(١) رواه صدره البيهقي في « شعب الإيمان » (٧٧٠٤) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦١/ ٢٠٠) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه ، وأورده كاملاً القاليّ في « ذيل الأمالي » (٣/ ٢١٢) .
(٢) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤١٧) ، و« المستطرف » (١/ ٩٤) .
(٣) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٣٥) ، و« ربيع الأبرار » (٤/ ٥٢) .
(٤) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤١٨) ، و« محاضرات الأدباء » (١/ ٥٢) .

وقال بعض الأدباء : (مَن استغنىٰ برأيه .. ضلَّ ، ومَن اكتفىٰ بعقله .. زلَّ)[1] .

وقال بعض البلغاء : (لَلْخطأُ مع الاسترشاد أحمدُ من الصواب مع الاستبداد)[2] .

وقال بعض الشعراء[3] : [من الطويل]

خَليليَّ ليسَ الرأيُ في صدرِ واحدٍ ... أَشِيرا عليَّ بالذي تَرَيانِ

ولا ينبغي أن يصوِّرَ في نفسه : أنه إن شاور في أمره .. ظهر للناس ضعفُ رأيه ، وفسادُ رَوِيّته ، حتّى افتقر إلىٰ رأي غيره ؛ فإنَّ هٰذه معاذيرُ النَّوكىٰ ، وليس يُراد الرأيُ للمباهاة به ، وإنَّما يُرادُ للانتفاع بنتائجه ، والتحرُّزِ من الخطأ عند زَلَله ، وكيف يكون عاراً ما أدّىٰ إلى الصواب ، وصدَّ عن الخطأ ؟!

وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لَقِّحُوا عُقُولَكُمْ بالمُذاكَرةِ ، واستعِينُوا علىٰ أُمورِكُمْ بالمُشاوَرةِ »[4] .

وقال بعض الحكماء : (من كمال عقلك استظهارُك علىٰ عقلك) .

وقال بعض البلغاء : (إذا أشكلت عليك الأمورُ ، وتغيَّر لك الجمهورُ .. فارجِعْ إلىٰ رأي العقلاء ، وافزَعْ إلى استشارة العلماء ، ولا تأنَفْ من الاسترشاد ، ولا تستنكِفْ من الاستمداد ، فلأَنْ تسألَ وتسلمَ .. خيرٌ لك من أن تستبدَّ وتندمَ)[5] .

وينبغي أن تكثر من استشارة ذوي الألباب ، لا سيَّما في الأمر الجليل ، فقلَّما

---

(١) أورده في « الإعجاز والإيجاز » (ص ٤١) ، و« التذكرة الحمدونية » (٣/ ٢٩٩) من قول سيدنا علي رضي الله عنه .

(٢) أورده في « نهاية الأرب » (٦/ ٦٩) .

(٣) البيت لعطارد بن قُرّان في « ديوان اللصوص » (٢/ ٢٢) ، و« معجم الشعراء » (ص ٢٠١) .

(٤) أورده في « محاضرات الأدباء » (١/ ١٥٠) .

(٥) أورده في « لباب الآداب » (ص ٦٩) ، و« نهاية الأرب » (٦/ ٧٠) .

يضلُّ عن الجماعة رأيٌ ، أو يذهبُ عنهم صوابٌ ؛ لأنَّ إرسالَ الخواطر الثاقبة ، وإجالة الأفكار الصادقة . . لا يعزُب عنها ممكن ، ولا يخفىٰ عليها جائز .

وقد قيل في منثور الحكم : (مَن أكثرَ المشورةَ . . لم يعدَمْ عند الصواب مادحاً ، وعند الخطأ عاذراً ، وإن كان الخطأُ من الجماعة بعيداً)(١) .

فإذا استشار الجماعةَ . . فقد اختلف أهلُ الرأي في اجتماعهم عليه ، أو إفراد كلِّ واحدٍ منهم به :

فمذهبُ الفرس : أنَّ الأَولى اجتماعُهم على الارتياء ، وإجالةِ الفكر(٢) ؛ ليذكرَ كلُّ واحدٍ منهم ما قدحه خاطرُه ، ونُتِجَه فكرُه ، حتّىٰ إن كان فيه قدحٌ . . عُورِض ، أو توجَّهَ عليه ردٌّ . . نُوقِض ؛ كالجدَل الذي تكون فيه المناظرةُ ، وتقع فيه المنازعةُ والمشاجرةُ ؛ فإنَّه لا يبقىٰ فيه مع اجتماع القرائح عليه خَلَلٌ إلا ظهر ، ولا زَلَلٌ إلا بان .

وذهب غيرهم من أصناف الأمم إلىٰ : أنَّ الأَولى استسرارُ كلِّ واحدٍ بالمشورة ؛ ليُجيلَ كلُّ واحدٍ منهم فكرَه في الرأي ؛ طمعاً في الحُظوة بالصواب ؛ فإنَّ القرائحَ إذا انفردت . . استكدَّها الفكرُ ، واستفرغَها الاجتهادُ ، وإذا اجتمعت . . فوَّضت ، فكان الأوّلُ من بدائهها متبوعاً .

ولكلِّ واحدٍ من المذهبين وجهٌ محتملٌ ، ووجهُ الثاني أظهرُ .

والذي أراه في الأَولىٰ : غيرُ هـٰذين المذهبين على الإطلاق ؛ ولـٰكن يُنظر في الشُّورىٰ : فإن كانت في حال واحدةٍ : هل هي صوابٌ أم خطأٌ ؟ . . كان اجتماعُهم عليها أَولىٰ ؛ لأنَّ ما تردَّد بين أمرين . . فالمرادُ منه : الاعتراضُ علىٰ

---

(١) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤١٨) ، و« زهر الآداب » (٢/ ٨٢٤) من قول ابن المعتزّ .
(٢) الارتياء : هو النظر والبحث .

فساده ، أو ظهورُ الحجّة في صلاحه ، وهـٰذا مع الاجتماع أبلغُ ، وعند المناظرة أوضحُ .

وإن كانت الشُّورىٰ في خَطْبٍ قد استبهم صوابُه ، واستَعجَمَ جوابُه ، من أمورٍ خافية ، وأحوالٍ غامضة ، لم يحصُرْها عدد ، ولم يجمعها تقسيم ، ولا عُرِف لها جوابٌ ، فيكشفَ عن خطئه وصوابه . . فالأَولىٰ في مثله : انفرادُ كلِّ واحدٍ بفكره ، وخلوُّه بخاطره ؛ ليجتهدَ في الجواب ، ثم يقع الكشف عنه : أخطأٌ هو أم صواب ؟ فيكونَ الاجتهادُ في الجواب منفرداً ، والكشفُ عن الصواب مجتمعاً ؛ لأنَّ الانفرادَ في الاجتهاد أصحُّ ، والاجتماعَ على المناظرة أبلغُ ، فهـٰكذا هـٰذا .

وينبغي أن يسلمَ أهلُ الشُّورىٰ من حسدٍ أو تنافُسٍ يمنعُهم من تسليم الصواب لصاحبه ، ثم يعرضَ المستشيرُ ذلك علىٰ نفسه مع مشاركتهم في الارتياء والاجتهاد ، فإذا تصفَّح أقاويلَ جميعهم . . كشف عن أصولها وأسبابها ، وبحث عن نتائجها وعواقبها ؛ حتّىٰ لا يكونَ في الأمر مقلِّداً ، ولا في الرأي مفوِّضاً ؛ فإنَّه يستفيد بذلك مع ارتياضه بالاجتهاد ثلاثَ خصال :

إحداهن : معرفةُ عقله ، وصحّةُ رَوِيّته .

والثانية : معرفةُ عقلِ صاحبه ، وصواب رأيه .

والثالثة : وضوحُ ما استعجَم من الرأي ، وانفتاح ما انغلق من الصواب[1] .

فإذا تقرَّر له الرأيُ . . أمضاه ، ولم يأخذْهم بعواقب الإكداء فيه ؛ فإنَّما على الناصح الاجتهادُ ، وليس عليه ضمانُ النُّجْح ، لا سيَّما والمقاديرُ غالبةٌ .

ومتىٰ عُرِف منه تعقُّبُ المشير . . وُكِل إلىٰ رأيه ، وأُسلِم إلىٰ نفسه ، فصار فرداً لا يُعانُ برأي ، ولا يُمَدُّ بمشورة .

---

(١) فظهر أن العمل بالحق والصواب لا بكثرة الآراء ، والاستشارة لإظهار ذلك .

وقد قالت الفرس في حِكَمها : (أضعفُ الحِيلة خيرٌ من أقوى الشدّة ، وأقلُّ التأنِّي خيرٌ من أكثر العَجَلة ، والدولةُ رسولُ القضاء المُبرَم ، وإذا استبدَّ المَلِك برأيه . . عمِيت عليه المَراشدُ)[١] .

وإذا ظفر برأي من خاملٍ لا يراه للرأي أهلاً ، ولا للمشورة مستوجِباً . . اغتنمه عفواً ؛ فإنَّ الرأيَ كالضالّة تؤخذ أين وُجِدت ، ولا يهون لمَهانة صاحبه ، فيُطرَحَ ؛ فإنَّ الدُّرَّةَ لا يضعُها مَهانةُ غائصِها ، والضالّة لا تُترَك لذِلّة واجدها ، وليس يُرادُ الرأيُ لمكان المُشير به ، فيُراعىٰ قدرُه ، وإنَّما يُرادُ لانتفاع المستشير به .

وأنشد أبو العيناء عن الأصمعيِّ[٢] : [من البسيط]

النُّصْحُ أرخَصُ ما باعَ الرِّجالُ فلا ... تَردُدْ علىٰ ناصحٍ نُصْحاً ولا تَلُمِ
إنَّ النَّصائحَ لا تخفىٰ مَناهِجُها ... على الرِّجالِ ذوي الألباب والفَهَمِ

ثم لا وجهَ لمَن تقرَّر له رأيٌ : أن يَنِيَ في إمضائه ؛ فإنَّ الزمان غادرٌ ، والفُرَصَ منتهَزةٌ ، والثقة عجزٌ[٣] .

قيل لملكٍ زال عنه ملكُه : (ما الذي سلبَك ملكَك ؟ قال : تأخيرُ عملِ اليوم إلىٰ غدٍ)[٤] .

وقد قال الشاعر[٥] : [من الطويل]

إذا كنتَ ذا رأيٍ فكُنْ ذا عزيمةٍ ... ولا تَكُ بالتَّردادِ للرّأي مُفسِدا
فإنِّي رأيتُ الرَّيثَ في العَزْمِ هُجْنةً ... وإنفاذَ ذي الرأي العزيمةَ أرشَدا

(١) أورده في « سراج الملوك » (٢/ ٧٣٥) .
(٢) أورد البيتين في « البصائر والذخائر » (٤/ ٣٥) ، و« المستطرف » (١/ ٢٥٥) .
(٣) أن يني : أن يفتر ويضعف ، والفرص منتهزة : مختلسة ومغتنمة .
(٤) أورده في « محاضرات الأدباء » (١/ ٣٧٦) ، و« سراج الملوك » (١/ ٢٢٨) .
(٥) الريث : مصدر من (راث الرجل) إذا أبطأ ، والهُجنة : العيب .

وينبغي لمَن أُنزل منزلةَ المُستشار ، وأُحِلَّ مَحلَّ الناصح الوادِّ ، حتّىٰ صار مأمولَ النُّجْح ، مرجوَّ الصواب . . أن يؤدِّيَ حقَّ هٰذه النعمة بإخلاص السريرة ، ويكافىءَ على الاستسلام ببذل النُّصح ؛ فقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنَّ من حقِّ المسلمِ على المسلمِ إذا استنصَحَهُ أنْ ينصَحَهُ »(١) .

وربَّما أبطرته المشاورةُ ، فأُعجِب برأيه ، فاحذره في المشورة ؛ فليس للمُعجَب رأيٌ صحيح ، ولا رَوِيّةٌ سليمة .

وربَّما شحَّ بالرأي ؛ لعداوةٍ أو حسد ، فورَّىٰ أو مكر ، فاحذر العدوَّ ، ولا تثِقْ بحسود .

ولا عذرَ لمَن استشاره عدوٌّ أو ضدٌّ أن يكتمَ رأياً وقد استرْشِد ، ولا أن يخونَ وقد اؤتُمِن .

روىٰ محمد بن المنكدر ، عن عائشة رضي الله عنها أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : « المُستشِيرُ مُعانٌ ، والمُستشارُ مُؤتَمَنٌ »(٢) .

وقال سليمان بن يزيد : [من الكامل]

وأجِبْ أخاكَ إذا استشارَكَ ناصحاً وعلىٰ أخيكَ نصيحةٌ لا تَردُدِ

ولا ينبغي أن يشيرَ قبل أن يُستشارَ إلا فيما مسَّ ، ولا أن يتبرَّعَ بالرأي إلا فيما لزم ؛ فإنَّه لا ينفكُّ من أن يكونَ رأيُه متَّهماً أو مُطَّرحاً ، وفي أيِّ هٰذين وقع . . كان وصمةً ؛ فإنَّما يكون الرأيُ مقبولاً إذا كان عن رغبةٍ وطلب ، أو كان لباعثٍ وسبب .

روىٰ أبو بلال العِجْليُّ ، عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه ، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « قال لقمان لابنه : يا بنيَّ ؛ إذا استُشهِدْتَ . .

---

(١) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٩٢٢) ، والطبراني في « المعجم الكبير » (٤/ ١٨٠) عن سيدنا أبي أيوب الأنصاريّ رضي الله عنه .

(٢) رواه في « تاريخ دمشق » (٥٨/ ٤١٠) عن عبيد بن صخر بن لُوْذان الأنصاري رحمه الله تعالىٰ .

فاشهَدْ ، وإذا استُعِنْتَ . . فأَعِنْ ، وإذا استُشِرْتَ . . فلا تعجَلْ حتّىٰ تنظُرَ »[1] .

وقال ابن بَيْهسٍ الكِلابيُّ[2] : [من الطويل]

مِنَ النّاسِ مَن إنْ يَستَشِرْكَ فتجتهِدْ ... لـهُ الـرّأيَ يستغشِشْـكَ مـا لـم تُتـابِعَـهْ

علـىٰ رأيِـهِ إنْ كـان مَـوقِـعُ رأيِـهِ ... صَـوابـاً إذا مـا الـرأيُ أعيَـتْ مَـواقِعُـهْ

فـلا تمنَحَـنَّ الـرّأيَ مَـن ليـسَ أهلَـهُ ... فـلا أنـتَ محمـودٌ ولا الـرّأيُ نـافِعُـهْ

---

(١) أورده في « التذكرة الحمدونية » (٣/ ٣١٤) .

(٢) أورد البيتين الأول والثالث في « التذكرة الحمدونية » (٣/ ٣١٧) لبعض أعراب بني أسد ، و« المستطرف » (١/ ٢٥٥) ، والبيت الأخير في « ديوان الشافعي » (ص ٩١) .